البسوس
أربعون عاماً من الدم والشعر

ارتبط اسم البسوس بحرب هي من أطـــول وأعنـــف الحـــروب العربية في الجاهلية.

فلقد استمرت هذه الحرب حوالي أربعين سنة.

وكانت البسوس هي السب في اندلاع هذه الحـــرب، التـــي راح ضحيتها عدد كبير من رجال أفضل العرب وزهرة شابها.

فمن هي هذه المرأة التي تسببت في حدوث تلك المأساة؟!

البسوس: شاعرة من شاعرات العرب قبل الإسلام، استطاع شعرها أن يشعل نار الفتنة والحرب بين قبيلتين من أكبر القبائل العربية.

فقد حدث في أحد الأيام، أن جاءها أحد أقاربها ضيفـــاً عليـــها، وكان اسمه سعد، فاستقبلته مرحبة، وهيأت ضيافته على أحسن مـــا يكون، بل إنها زيادة في إكرامه: اهتمت بناقته "ســـراب"، فســـقتها وأزاحت عنها حمولتها، ثم أطلقتها ترعى في الأنحاء.

لكن الظروف السيئة هي التي قادت الناقة سراب إلى منطقة تدعـــى "العالية" وكانت هذه المنطقة مرعى خاصاً لسيد قبيلة بني تغلب "كليـــب بن ربيعة"، ولسوء الحظ كان كليب في هذا الوقت يتجول على ظـــهر

obeikandl.com

فرسه، متفقداً أملاكه، فراعه وجود ناقة غريبة ترعى بين إبله، فاستاء من هذا الإهمال والتعدي، ثم سأل: لمن تكون هذه الناقة الغريبة؟ فقيل له: إنها تخص رجلاً نزل ضيفاً على البسوس.

وكانت البسوس خالة جساس.

فالتفت كليب إلى جساس، وقال له مغاضباً: لا تعودنَّ هذه الناقة إلى هذا الحمى بعد اليوم.

عندئذٍ فار دم الجساس في عروقه إزاء هذه اللهجة المتعالية التي حدثه بها كليب، ومن ثم فلم يجد بداً من أن يرد عليه قائلاً: والله لتعودن مرة بعد مرة، ولا ترعى الإبل إلا وهي معها.

فلما سمع كليب منه هذا القول، رد عليه مقسماً أن يضع سهمه في ضرع هذه الناقة لو رآها مرة أخرى.

وفي اليوم التالي خرج كليب يتفقد إبله، فلما لمح الناقة "سراب" بينها، رماها بسهم فأصاب ضرعها، فأسرعت تهرول مخضبة بدمائها وهي تنازع الموت، فلما وصلت قرب مكان صاحبها سعد المقيم عند البسوس، خرت صريعة، فلما رآها على هذه الحالة، أخذ يصيح وينوح على ناقته، فأثر هذا المشهد المحزن على قلب البسوس، فصاحت تنشد هذه الأبيات:

لعمرك لو أصبحت في دار منقذ ... لما ضيم سعد وهو جار لا بياتي

ولكنني أصبحت في دار غربة ... متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي

فيا لا تغرر بنفسك وارتحل ... فإنك في قوم عن الجار أموات

وكانت تلك الأبيات التي ألقتها البسوس بداية لسلسلة الحوادث المفجعة والمآسي الرهيبة، والتي كان لهذه المرأة دور البطولة فيها.

لما سمع جساس شعر البسوس تحركت نخوته.

فكيف يهان الضيف وتقتل ناقته، وهي في حماية سيد بني بكر، أي عار هذا؟

وكيف ترضى كرامته الصمت على هذه الإهانة؟

كلا، إن رجولته تستنهضه أن ينتقم.

إذن لابد من معاقبة الجاني.

وهكذا رداً على هذه الفعلة الشنعاء: أقسم جساس أن يدفع كليب الثمن، وبسرعة خرج حاملاً رمحه، ممتطياً فرسه، وراح يبحث عن كليب، فلما رآه عدا نحوه حتى وصل إليه من خلفه، كان كليب يسمع وقع حوافر فرس جساس، لكنه يأبى أن يلتفت إليه، حينئذٍ طعنه جساس برمحه طعنة قاتلة، ثم تركه، وعاد إلى دياره، مضطرباً، تعلو وجهه صفرة الندم، فلما لقيه أبوه على هذه الحال سأله: ماذا بك يا جساس؟ فحكى له جساس كل ما حدث، ولما فرغ، صاح فيه أبوه: بئس ما فعلت بقومك، قتلت سيد تغلب من أجل ناقة، والله لقد حل بنا الخراب.

وبالفعل فقد توالت الأحداث الرهيبة بعد مقتل كليب.

فقد أقسم أخوه "عدي" المعروف بـ"المهلهل" أن ينتقم لأخيه بقتل آل مرّة جميعاً.

لكن قومه اجتمعوا عليه، وأقنعوه بعد إلحاح أن يتفاوض مع بني مرة قبل إعلان الحرب عليهم، فذهب وفد من الأشراف إلى مرة وأطلعوه على شرط عدي لحقن الدماء، وقد كان هذا الشرط هو أن يسلم إليه مرة الجساس ليقتله أو أخاه همام.

فأجاب مرة: يا أخوتي، أما جساس فقد هرب، ولا أدري أين هو، وأما همام فهو أب لعشر رجال وأخ لعشر رجال، فأنا لا أقدر على تسليمه وليس لي في الأمر حيلة.

وكان هذا الرد بمثابة إعلان الحرب بين القبيلتين.

فقُرعت الطبول وانضمت القبائل يناصر بعضها بعضاً.

وأخذ القتلى يتساقطون، ورمال الصحراء تبتلع دماءهم طيلة أربعين سنة، والبسوس من وراء الجيوش تلهب حماستهم بكلمات من نار، وتذكي روح العداوة في قلوبهم إن جنحوا للسلام.

وعلى الجانب الآخر، كان المهلهل الذي لا يتوانى عن أخذ الثأر وتحقيق وعده بالقضاء على بني مرة، مهما كانت التضحيات، وهكذا ظلت نيران هذه الحرب مستعرة، حتى قُتل المهلهل أخيراً.